الفصل الخامس

الحياة العلمية والعمرانية في نابلس

الحياة العلمية والعمرانية في نابلس

درجت الدراسات المعاصرة في تناولها للحركة العلمية في الدولة المملوكية على الاشادة بهذه الحركة في ظل المماليك؛ على اعتبار انهم شجعوا ورعوا هذه الحركة في السلطنة وذلك لاسباب متعددة:- منها استكمالهم للسياسة الايوبية التي رغبت في القضاء على المذهب الشيعي في مصر والشام، ومنها ايضاً اهتمام السلاطين المماليك بالواجهة الدينية لدولتهم، وهو ما دفعهم الى احياء الخلافة العباسية بالقاهرة سنة (٦٥٩هـ/١٢٦١م) على يد الظاهر بيبرس. ومرد الاهتمام بالواجهة الدينية للدولة الناشئة؛ فضلاً عن الاهتمام بمقدسات المسلمين ورعايتها، الى انهم كانوا من المجرحين في اصلهم، الى جانب نظرة المعاصرين لهم على أنهم استأثروا بالحكم دون سادتهم الايوبيين.

وهنا يجدر بنا التساؤل عن علاقة ذلك بتشجيع العلم، فاذا كان المماليك ممن جرحت أصولهم، ونظر اليهم على انهم مغتصبون للحكم، فالمفروض ان يسعى المماليك انفسهم جاهدين لتلقي العلم لتعويض هذا النقص الذي يشعرون به، لكننا في الحقيقة لا نجد مجالس علم وحوار ومناقشات في بلاطهم يرعونها ويشاركون فيها، كما هو الحال في بلاط الايوبيين او الخلفاء العباسيين الاوائل ممن هم على شاكلة المأمون وغيره.

اذاً لم يكن السلاطين المماليك من طبقة العلماء، حتى يشجعوا بالتالي العلم ويرعوه ويعملوا على علو شأنه، ولا يقتصر الامر على السلاطين بل يمتد ليشمل غالبية الامراء المماليك الذين انحصر جل اهتمامهم في تعلم الفروسية وفنون القتال، وترك امر العلم لغيرهم من ابناء البلاد.

ويجب ان نلاحظ ونحن نتحدث عن الحياه العلمية، ان المماليك قد شجعوا العلماء على التوجه نحو علوم محددة فقط وهي العلوم الدينية، في حين لم يشجع المماليك العلوم العقلية والفلسفة والمنطق؛ رغبة منهم في الا تثير هذه العلوم الانتباه اليهم والى مساوئهم، وما يقومون به في المجتمع من استئثار بالسلطة، والى ما يلعبونه من دور في تخريب الحياة الاجتماعية والاقتصادية، وخاصة في عصر التراجع عصر دولة الجراكسة، لهذا السبب لم يشجعوا العلوم التي من شأنها ان تدفع العقل الى الحرية الفكرية والتساؤل والنقد ووجه الاهتمام الى مجال العلوم الدينية وبولغ في اظهار وتشجيع مبدأ الزهد، الزهد في الحياة وجاهها وسلطانها، وترك نعيمها الزائل للتمتع بالحياة الاخرة ذات النعيم المقيم والدائم، وهو ما يعزز بالتالي توجه المماليك لابقاء كل شيء في المجتمع على حاله ليستمروا فيما هم فيه من سلطة وجاه ونفوذ.

ولذلك يجدر بنا ونحن ندرس الحياة العلمية في الدولة المملوكية، الى التنبه الى هذه الامور؛ حتى تدرس الحياة العلمية في اطارها الصحيح، ويكف عن المبالغة في إظهار المماليك بمظهر الحريصين على تشجيع العلم والعلماء.

وولاية نابلس كوحدة ادارية مملوكية عرفت حياة علمية لا بأس بها، على الرغم من أنه توفر لها المقومات التي تضمن النجاح لقيام حركة علمية نشطة؛ فهي ذات موقع جغرافي متوسط داخل فلسطين، وتقع ضمن دائرة النشاط الحضاري للسلطنة المملوكية، وهي قريبة من مراكز الاشعاع العلمي في السلطنة كدمشق والقاهرة، ولذلك حين تحدث عنها الجنبلي ووصفها بأنه خرج منها الكثير من العلماء(١) . فأنه ومثل هذه العبارة كفيلة بأنه تشير لاول وهلة الى حياة علمية نشطة في الولاية، وقد تغرى الباحث بالإستنتاج بأنها قد شهدت حركة علمية نشطة ومزدهرة، حتى تخرّج بالتالي هذا العدد الكبير من العلماء.

---

(١) الحنبلي: الانس الجليل، ج٢، ص ٧٥.

ولكن نظرة علمية متأنية الى طبيعة الحياة العلمية في نابلس تثبت غير ذلك، ولا اقصد بذلك ان البلد لم تخرج العلماء، ولكن الحركة العلمية كحركة مزدهرة لا يمكن استنتاجها من الاشارة السابقة، فازدهار الحركة العلمية يحتاج الى مؤسسات علمية تعنى بالنشاط العلمي وتشجعه وترعاه، والمؤسسات العلمية في نابلس قليلة، فنحن لا نجد فيها سوى مدرستين في حين نجد ان مدينة كالقدس مثلاً تحتوي على اكثر من اربعين مدرسة، واكثر من عشرين زاوية فضلاً عن مكاتب الاطفال والمساجد(١).

اما دمشق فقد حوت على مائة وثلاثين مدرسة درّست لمختلف المذاهب، إضافة الى سبع دور لتدريس القرآن الكريم، وخمسة عشرة داراً لتدريس الحديث، وثلاث دور لتدريس الحديث والقرآن معاً، وثلاثين خانقاه وسبعة واربعين رباطاً، وثمان وسبعين تربة وواحد وثلاثين مسجداً(٢). فأين تقع نابلس بما تحتويه من مدارس مع القدس، او دمشق على سبيل المثال لا الحصر.

إذاً نستنتج من ذلك ان المؤسسات التعليمية في الولاية كانت قليلة، وهو ما ينعكس حتماً على طبيعة الحركة العلمية، فيجعلنا نخرج بنتيجة مؤداها ان الحياة العلمية كانت فيها ضعيفة، ويعود السبب في ذلك؛ الى قلة اهتمام المماليك بتشجيع هذه الحركة بدليل قلة المنشآت التعليمية فيها.

وهنا تصبح اشارة الحنبلي واضحة ومقبولة، حين نعلم بأنه خرج من نابلس عدد كبير من العلماء، وهؤلاء العلماء على الأغلب كانوا يرتحلون أما الى دمشق، واما الى القاهرة، يحدوهم في ذلك؛ اما الرغبة في طلب العلم وملازمة العلماء، وهذا يكون بالتقرب من المراكز

---

(١) الحنبلي: الانس الجليل، ج٢، ص٥٦١-٥٩٦.

(٢) النعيمي، محمد بن عبد القادر: الدارس في تاريخ المدارس، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٩٠ ج١و ج٢.

العلمية النشطة بما تحوية من مؤسسات تعليمية وعلماء، او الرغبة في تولي المناصب العليا في الدولة وفي حالة نابلس نلحظ ان قلة هم ابناءها الذين كانوا يعودون للتدريس فيها، ولا نجد سبباً لذلك إلا لقلة المؤسسات التعليمية التي يمكن ان تتوفر لتغري هؤلاء بالعودة.ولما كانت الاغلبية من ابناء نابلس يرتحلون لطلب العلم لرغبة فيه او لرغبة في تولي المناصب العليا في الدولة، فإن لدينا الشواهد المؤيده على تولي عدد كبير من هؤلاء العلماء الذين خرجوا من نابلس لمناصب متعددة وبارزه في الدولة ومنهم:

ابو المظفر يوسف بن حسن بن بكار النابلسي المنعوت بالشرف ت(٦٧١هـ/١٢٧٢م)، وقد تولى مشيخة دار الحديث النورية[١] بدمشق الى حين وفاته[٢] وقاضي القضاه شرف الدين ابو البركات، موسى بن فياض بن عبد العزيز الفندقي[٣] النابلسي؛ حيث ولى قضاء حلب سنة (٧٤٨هـ/١٣٤٧م)، وهو اول من وُلّيَ قضاء الحنابلة بها[٤].

أما في مصر فقد تولى العديد من علماء نابلس المناصب الهامة فيها ومنهم:- يحيى بن علي بن عبدا لله بن علي مفرج بن ابي الفتوح، الامام رشيد الدين ابو الحسن القرشي الاموي النابلسي (٥٨٤-٦٦٢هـ/١١٨٨-١٢٦٣م)، حيث انتهت اليه رئاسة الحديث بالديار المصرية[٥].

---

(١) دار الحديث النورية: وهي دار بناها نور الدين محمود الملك العادل ابو القاسم محمود بن ابي سعيد زنكي بن امة سنقر ت(٥٦٩هـ/١١٧٣م) وهو أول من بنى دار للحديث النعيمي:الدارس في تاريخ المدارس،ج١، ص٧٤.

(٢) الدواداري: زبدة الفكرة، مخطوط لوحة ١٢٦.

(٣) الفندق: كلمة من اصل يوناني تعني خان ونزل وهي قرية تقع بين يافا ونابلس وينسب اليها عدد من العلماء باسم (الفندقي) في القرنين السابع والثامن الهجريين، محمد شراب: معجم البلدان فلسطين ص٥٨٨.

(٤) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب،ج٦، ص٢٥٩.

(٥) الكتبي: محمد بن شاكر، فوات الوفيات والذيل عليها تح احسان عبّاس، دار الثقافة، بيروت، ج ٤، ص٢٥٩. وسيشار اليه فيما بعد الكتبي: فوات الوفيات.

وابو القاسم بن خلف العُسْكري الحنبلي (بضم العين المهملة وسكون السين)، نسبة الى قرية عُسكر من قرى نابلس (٦٢٠-٦٨٥هـ/١٢٢٣-١٢٨٦م)، وقد اصبح نقيب الحنابلة بمصر(١). وقاضي القضاة كمال الدين أبو الفضل محمد بن قاضي القضاه بدر الدين ابي عبدالله محمد بن قاضي القضاه شرف الدين ابي حاتم عبدالقادر الجعفري النابلسي المعروف بأبن قاضي نابلس ت ٨٣٠هـ/١٤٢٦م وباشر القضاء بنابلس، ثم باشره بالديار المصرية(٢). ومحمد بن يحيى بن عمر بن احمد بن يونس النابلسي القراني شهرة الانصاري نسباً، تولى منصب قاضي القضاة بالقاهرة المعزية(٣).

أما في مدينة القدس؛ فقد كان الشيخ الامام ابوالذكاء عبد المنعم بن ابي الفهم يحيى بن ابراهيم القرشي الزهري النابلسي (٦٠٣-٦٨٧هـ/ ١٢٠٦-١٢٨٨م) يشغل منصب الخطابة والامامة في المسجد الاقصى طوال فترة اربعين سنة(٤). والخطيب الأمام عماد الدين ابو حفص عمر الخطيب ظهير الدين عبد الرحيم بن يحيى بن ابراهيم بن علي بن جعفر بن عبدالله وبن الحسن القرشي الزهري النابلسي (ت ٧٣٤هـ/١٣٣٣م)، وقد تولى خطابه القدس لفترة، ثم جمع بين خطابه القدس وقضائها(٥).

انه قلة اهتمام المماليك في الحياة العلمية وتنشيطها في ولاية نابلس ممثلاً بعدم الاهتمام بانشاء المؤسسات العلمية ورعايتها لا يعني نفي الحياة العلمية عن نابلس ولا يعني ان السكان قد ركنوا الى الجهل ولكن العكس هو الذي حصل فرغم قلة المؤسسات العلمية الا ان هذا لم يمنع من قيام اسرات علمية في ولاية نابلس وقد اسهمت تلك الاسر في تنشيط الحياة العلمية، بما

---

(١) المقريزي:المقفى الكبير، ص٦٣٥.

(٢) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب،ج٧،ص٣٤٩.

(٣) ابن القاضي:العباس احمد بن محمد المكناسي: درة الحجال في اسماء الرجال، تح محمد الاحمد ابوالنور، دار التراث، تونس، ج٢، ص٢٥، وسيشار اليه فيما بعد ابن القاضي: درة الحجال.

(٤) الحنبلي: الانس الجليل، ج٢، ص١٣٦.

(٥) ابن كثير: البداية والنهاية، ج٦، ص١٠٨.

انجبته من علماء، وما كان لهؤلاء من جهود علمية ومؤلفات. وفيما يلي نعرض لتلك الاسر مكتفين بالاشارة الى مؤسسيها مع نبذه عن أهم مؤلفاتهم:-

اولاً: بنوقدامه

واصلهم من قرية جماعيل[1] ، وعلى رأس هذه الاسرة موفق الدين بن قدامه (٥٤١-٦٢٠هـ/ ١١٤٦-١٢٢٣م)، كان إماماً حجه مصنفاً متفنناً متبحراً في العلوم كبير القدر، ومن اهم تصانيفه في الفقه (البرهان) (مسألة العلو) (الاعتقاد) (ذم التأويل) (المتحابين في الله) (فضل عاشورا) (فضائل العشر) (ذم الوسواس)[2].

ومن علمائهم ايضاً الشيخ ابو عمر محمد بن احمد بن قدامه (٥٢٨-٦٠٧هـ/ ١١٣٣-١٢١٠م)، ولد بقريه الساويا (قباب الساوي) من أعمال نابلس ودفن بجماعيل[3]. وابراهيم بن عبد الواحد بن سرور الشيخ عماد الدين المقدسي الحنبلي، ولد بجماعيل (٥٤٣-٦١٤هـ/١١٤٨-١٢١٧م)، وله معرفه حسنة بالحديث مع كثرة السماع واليد الباسطة في الفرائض والنحو والخط المليح[4].

---

(١) جماعيل: بالفتح وتشديد الميم والف وعين مهملة ومكسورة وياء ساكنة ولام: قرية في جبل نابلس من ارض فلسطين، ياقوت، معجم البلدان ج١،ص١٥٩-١٦٠. وتجدر الاشارة هنا الى ان العديد من علماء جماعيل (بنوقدامه) انتسبوا الى بيت المقدس وذلك لقرب جماعيل من بيت المقدس. راجع ياقوت: معجم البلدان،ج١، ص١٥٩-١٦٠. وقد خرج العديد من علمائها واهلها الى دمشق من جور الفرنج ونزلوا بمنطقة سميت بالصالحية نسبة الى ابو بكر محمد بن ابي بكر بن ابي عمر الصالحي، فسميت نسبة اليه. ابن طولون: القلائد الجوهرية،ج١، ص٦٨، النابلسي: الحضرة الانسية، ص٩٠-٩١. على ان ابي شامة يورد سبب تسميتهم بالصالحية الى ان ابو عمر (احد الاشخاص المهاجرين من نابلس) قال هاجرنا من بلادنا فنزلنا بمسجد ابي صالح بباب شرقي فاقمنا به مدة ثم انتقلنا الى الجبل فقال الناس، الصالحية، الصالحية، نسبوا الى مسجد ابي صالح لاننا صالحون قال ولم يكن بالجبل عمارة الا دير الحوراني واماكن يسيرة، انظر ابي شامة: تراجم رجال القرنين، ص٧١.

(٢) الكتبي: فوات الوفيات ج٢، ص١٥٨-١٥٩.

(٣) ابو شامة: تراجم رجال القرنين، ص١٧.

(٤) الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٦، ص٤٩.

ومنهم محمد بن احمد بن عبد الهادي بن يوسف بن محمد بن قدامه المقدسي الجماعيلي الاصل (٧٠٤-٧٤٤هـ/١٣٠٤-١٣٤٣م)، وقد عنى بالحديث وفنونه ومعرفة الرجال والعلل، وبرع في ذلك. وله تصانيف كثيرة منها (الأحكام الكبرى) (الرد على أبي بكر الخطيب في مسألة الجهر بالبسملة) (المحرر من الأحكام) (فصل النزاع بين الخصوم في الكلام) (العمدة في الحفاظ)(1).

ومنهم محمد بن احمد بن ابراهيم بن عبدا لله بن ابي عمر محمد بن احمد بن محمد بن قدامه بن مقدام النابلسي الاصل(2)، وكان عالم حديث وقد قيل فيه عند موته: نزل اهل الاسناد بموته درجة(3).

ثانيا: بنو المرداوي

من قرية مردا(4) وعلى رأسهم الشيخ شمس الدين ابو عبدا لله بن عبد القوي ابن بدران المرداوي (٦٣٠-٦٩٩هـ/١٢٣٢-١٢٩٩م)، كان إماماً عالماً فاضلاً في الفقة والنحو واللغة، كثير المحفوظ، وقد عمل بالافتاء والتدريس(5)، واحمد بن محمد بن جبارة بن عبد المولى الحنبلي المرداوي الصالحي (٦٤٩-٧٢٨هـ/١٢٥١-١٣٢٧م)، حيث برع في النحو والقراءات واشتهر بهما(6)، وشمس الدين القباقي محمد بن ابراهيم بن عبدا لله المرداوي (ت٨٢٦هـ/١٤٢٢م)، وله يد طولى في الفقة وقد اشتغل بالافتاء والتدريس(7).

---

(١) ابن طولون: القلائد الجوهرية، ج٢، ص٤٣٣-٤٣٤.

(٢) المصدر والجزء نفسها، ص٤٠٧.

(٣) المصدر والجزء نفسها ص٤٠٨.

(٤) مردا: بفتح الميم وسكون الراء: قرية تقع جنوب جماعيل وعلى مسيرة كيلين منها ومردا قرية قرب نابلس وتشتهر بالزيتون وبكثرة العلماء الذين خرجوا منها ونسبوا اليها محمد شراب: معجم البلدان فلسطين ص٦٥٦.

(٥) الذهبي: تذكرة النبيه، ج١، ص٢٢٢.

(٦) الصفدي: الوافي بالوفيات ج٨، ص٢٥ وابن كثير: البداية والنهاية، ج٤، ص١٤٨.

(٧) ابن طولون: القلائد الجوهرية، ج١، ص١٩٧.

ثالثاً: العنبتاوي

نسبة الى قرية عنبتا[1] ومن اشهر علمائهم: احمد بن ابراهيم بن عبدالرحمن بن حمدان بن حميد برهان الدين بن زين الدين العنبتاوي (٧٨٣هـ/١٣٨١م)، وقد حفظ العديد من التصانيف وله ابحاث في الفقة[2].

ولقد كان لهذه الاسر دور في اثراء الحياة العلمية في نابلس، بحيث جعلتها احدى المراكز العلمية النشطة، حيث قدم اليها العديد من العلماء لكي يأخذوا العلم عن اهل نابلس، ومن هؤلاء الشيخ ابو عبدا لله شمس الدين محمد بن عبدالرحمن بن محمد عثمان السخاوي (ت٩٠٢هـ/١٤٩٦م) الذي ارتحل الى نابلس وسمع بها[3]. والفيروز ابادي محمد بن يعقوب الذي سمع عن عبدالرحمن المرداوي واحمد بن مظفر النابلسي[4].

المؤسسات التعليمية

سبق وأن اشرنا بان اكثر ما عانت منه نابلس بالنسبة للحياة العلمية هو قلة المؤسسات التعليمية فيها، وعلى الرغم من ذلك فأن هنالك عدد كبير من العلماء خرج منها: وقلة المؤسسات فيها لا يعني انها قد خلت من هذه المؤسسات فقد وجد فيها بعض هذه المؤسسات مثل المدارس، المساجد، والزوايا التي كان لها اثر في الحياة العلمية فيها ومنها:

---

(١) عنبتا: -بلدة على الضفة الشمالية لوادي الشعير الذي ينحدر من مرتفعات نابلس شرقاً في طريقة الى الغرب وقد عرفت بهذا الاسم منذ العهد الروماني، محمد شراب: معجم البلدان فلسطين، ص٥٤٩.

(٢) السخاوي: الضوء اللامع، ج١، ص٥٨.

(٣) العيدروسي، محي الدين عبد القادر: تاريخ النور السافر، دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٩٨٥ ص١٨، و١٩.

(٤) السخاوي: الضوء اللامع، ج١٠، ص٨٩-٩٠.

اولاً: المدارس

فمن بين المدارس التي انشأت في نابلس وتعود الى العصر المملوكي: مدرسة العماد عبد الحافظ بن بدران ابن شبل المقدسي ت(٦٩٨هـ/١٢٩٨م)، حيث انشأ مدرسة له بنابلس(١).

وكذلك قام القاضي فخر الدين محمد بن فضل الله ناظر الجيوش المنصورة بالديار المصرية ببناء مدرسته بنابلس(٢)، اضافة الى ما ذكر فقد انشئ هنالك العديد من المدارس الاخرى، والتي لا يعرف زمن انشائها بدليل ان الرحالة اوليا جلبي يشير في رحلته الى نابلس؛ بأنه كان هناك سبع مدارس ابتدائية للأولاد(٣). وقد ساهمت هذه المدارس الى حد ما برفد الحركة العلمية في الولاية حيث أسهمت في تخريج عدد من العلماء منها.

ثانياً: المساجد

وهي من المؤسسات التعليمية التي وجدت في نابلس، وقدمت الخدمات التعليمية فيها، فقد كانت بجانب دورها كدور عبادة مراكز للتعليم يلتقي فيها العلماء لإلقاء الخطب والتدريس. ومن اشهر مساجد نابلس:

المسجد الكبير:- ويقع في شرقي المدينة ومدخلة الرئيسي لجهة الشرق(٤). وقد كان هذا المسجد كنيسة كبيرة، حولها صلاح الدين الى جامع، وقد كان يسمى اثناء الفترة الفرنجية باسم

---

(١) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب،ج٥، ص٤٤٢، ابن رجب: زين الدين ابي الفرج عبد الرحمن بن شهاب الدين احمد: الذيل على طبقات الحنابلة، دار المعرفه للطباعه والنشر، بيروت، ١٩٥٣، ج٢، ص٣٤١ وسيشار اليه فيما بعد ابن رجب: الذيل على طبقات الحنابلة. وهذه المدرسة حالياً غرب جامع النصر بنابلس وهو زاوية ومسجد ومدرسة:كامل العسلي نقوش نابلس نقش رقم (٩)، حولية دائرة الاثار العامة، مجلد ٣٦، عمان ١٩٩٢، ص٣٧٠.

(٢) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٦، ص ٢٩٥-٢٩٦.

(٣) Evliya Tshelebis: Travels in Palestine P. 139.

(٤) محمود العابدي: الاثار الاسلامية في فلسطين والاردن، جمعية عمال المطابع التعاونية، عمان ١٩٧٣، ص٥٨، وسيشار اليه فيما بعد العابدي: الاثار الاسلامية، صبحي طوقان جبل النار نابلس، ص٥٧.

كنيسة القيامة[1]، وعلى ما يبدو سمي بهذا الاسم؛ لانه كان يشبه كنيسة القيامة في القدس[2]. ويميل الباحث الى الاعتقاد بأن الجامع الكبير كان في الاصل مسجداً قبل أن يحول الى كنيسة،على يد الفرنجة اثناء سيطرتهم على نابلس؛ لان نمط البناء ووصفه يدلل على انه بناء اسلامي[3]. ولان السلطان صلاح الدين كانا حريصاً في تعامله مع أهل الذمة على الوفاء لهم ومعاملتهم وفق احكام الشريعة الاسلامية فما كان ليقوم بتحويل كنائسهم الى مساجد إلاّ وفق الاحكام فان كان في الاصل مسجداً وحوله الفرنجة الى كنيسة فقد اعاده الى سابق عهده وان بني بعد الفتح الاسلامي لنابلس فهو من الأبنية المحدثة والتي وجب ازالتها ومن هنا جاء التحويل لمسجد.

وقد تعاقب على امامة هذا المسجد والتدريس فيه علماء نذكر منهم: عبد الرحمن بن عبدالكريم ابو هريره النابلسي وكان يدرس الفقه والنحو فيه[4]، والعالم ابن مكية ابو الفضل النابلسي الشافعي حيث شغل منصب الامامة فيه[5].

المسجد الغربي (الحنابلة):

ويعد من مساجد نابلس القديمة، وقد ذكره الحنبلي في الأنس الجليل باسم الجامع الغربي[6]، وقد دعي باسم الحنابلة منذ القرن السابع للهجرة، نسبة الى الحنابلة الذين تولوا الامامة فيه[7].

---

(١) Enlart, les Monuments des Croises P. 285.

(٢) العابدي: الآثار الاسلامية ص٥٩.

(٣) لقد قام الفرنسي Enlart بإعطاء وصف قام عن هذا المسجد محاولاً ان يدعم رأيه وبشكل قاطع على ان طريقة البناء فيه طريقة قوطية رغم ان الامثلة والشواهد التي فيه تدلل على انه بناء اسلامي. Enlart: les Monuments des Croises P285-P.289

(٤) السخاوي: الضوء اللامع، ج٤،ص٨٧.

(٥) المصدر نفسه، ج١، ص٣٣١.

(٦) الحنبلي: الانس الجليل، ج٢، ص٢٥٧.

(٧) صبحي طوقان: جبل نابلس، ص٥٦.

ومن أشهر من تولى الامامة في هذا المسجد: بهاء الدين ابو محمد بن منصور المقدسي ت(٦٢٣هـ/١٢٢٦م)(١). والعالم تقي الدين ابو عبدا الله بن جعفر المقدسي النابلسي الحنبلي ت(٦٣٨هـ/١٢٤٠م)(٢)، وشمس الدين ابو محمد عبدا الله بن محمد بن يوسف بن عبدالمنعم بن نعمة المقدسي النابلسي ت(٧٣٣هـ/١٣٣٢م)، الذي تفقّه وافتى وأم بمسجد الحنابلة نحو سبعين سنة(٣).

ومن المساجد التي عرفت في نابلس مسجد **الشيخ بدران** نسبة الى واقفة عماد بن الشيخ بدر الدين بدران (٦٩٨/١٢٩٨م) الذي كان مجاوراً للمدرسة العمادية وتنسب اليه ايضاً.(٤)

ومسجد **التوبة** وتبع في محله غرب وهنالك مجموعة من المساجد كانت تقع في قرى حول نابلس ومن أهم هذه القرى داما وسبسطيه وقاقون وعرابة وبعاره وقرقيب.(٥)

ولقد وجد في ولاية نابلس مساجد اخرى تعود للفترة المملوكية؛ وكانت تستخدم للتعليم ولعل من اشهرها مسجد النصر ومسجد الخضرا(٦)، والتي كان لها أثرها في اثراء الحركة العلمية ومسجد التين، والساطور، والعكر، والزين(٧) .

---

(١) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٥، ص١١٤.

(٢) الحنبلي: الانس الجليل، ج٢، ص٢٥٧.

(٣) ابن العماد الحنبلي: شذارت الذهب، ج٦،ص١١٥.

(٤) البخيث: نابلس ونواحيها، ص٩٤.

(٥) البخيث: نابلس ونواحيها، ص٩٥.

(٦) Evliya tshelebis: Travel in Palestine, P, 139.

(٧) البخيث: نابلس ونواحيها، ص٩٤.

ثالثاً: الزوايا

تعتبر الزوايا في العصر المملوكي من بين المؤسسات التعليمية، حيث كانت تتألف من مجموعة من الغرف لتدريس القرآن وتحفيظه. ولقد وجد عدد من الزوايا في نابلس منها: زاوية الشيخ عبدا لله بن غانم بن علي بن ابراهيم بن عساكر بن الحسين المقدسي ت(٦٧٢هـ/١٢٧٣م)، وكان احد شيوخ المتصوفة(١). وزاوية الشيخ عبد الحافظ بن بدران ت(٦٩٨هـ/١٢٩٨م) بطور عسكر ودفن بها(٢). ولقد ساهمت الزوايا الى حد ما في تنشيط الحياة العلمية في المدن والقرى، وان انحسر دورها في تدريس القرآن والحديث والفقة والتصوف، اضافة الى الخدمات المعتادة التي تقدمها للفقراء والمساكين والزوار.

البيمارستانات.

وهي من بين المؤسسات التي حظيت باهتمام ورعاية السلاطين واهل الخير في الدولة المملوكية، ويرجع وجود البيمارستانات في نابلس الى عصر السيطرة الفرنجية، حيث اقام فرسان الاسبتارية بيمارستاناً لمعالجة المصابين بمرض الجذام.(٣)

وقد استمر هذا البيمارستان في اداء دوره طيلة العصر المملوكي.أما في العصر المملوكي فقد أقام محمد بن فضل ا لله القاضي فخر الدين المعروف بالفخر، كاتب المماليك وناظر الجيش ببناء بيمارستان بمدينة نابلس.(٤)

ومما يجدر ذكره بأن البيمارستانات في العصر المملوكي كانت مراكز لتدريس العلوم الطبية، الى جانب ما اختصت به من تقديم الرعاية الصحية والمعالجة والاستشفاء. ولا نعرف ان

---

(١) العيني: عقد الجمان، ص١٢٢.

(٢) ابن رجب: الذيل على طبقات الحنابلة، ص ٣٤١.

(٣) Benvenisti,Op cit.,.165.

(٤) المقريزي: المقفى الكبير، ج٦، ص٥١٦.

كانت البيمارستانات في نابلس قد قامت بالمهمة التعليمية الى جانب وظيفتها ام لا؟ على اية حال تولى العمل بهذه المؤسسات مجموعة من العلماء الذين برعوا في حقل الطب منهم العماد النابلسي(١)، وايوب بن نعمة بن محمد بن نعمة بن جعفر النابلسي ت(٧٣٠هـ/١٣٢٩م) الذي اشتهر بفقهه وطبه وبرع وتكسّب به.

أنواع التعليم وطبيعته

ان التعليم في ولاية نابلس لا يختلف عنه في اية مدينة اسلامية اخرى، حيث كان يمر هذا التعليم في مراحل منها:

المرحلة الاولى: مرحلة الصغر وفيها يدخل الطالب مكتباً (كتّاب)، ويتعلم فيه القرآن الكريم وشيء من الخط والاملاء ونحوها.(٢) وتعتبر هذه المرحلة من اهم واخطر المراحل في حياة الطفل، لكون ما يتعلمه فيها يبقى ملازماً له طول العمر. ولذلك وكتنبيه على خطورة هذه المرحلة، حرص العلماء المسلمون على تنبيه الاهالي اليها؛ وذلك باحسان اختيار المعلم في هذه المرحلة لمن يتصف بصحة العقيدة اذ ينشأ صبيان كثيرون عقيدتهم فاسدة؛ لان فقيههم كان كذلك. وأول ما يتعين على الاباء الفحص عنه عقيدة معلم ابنائهم ومن حق معلم الصغار الا يعلمهم شيئاً قبل القرآن ثم بعده حديث النبي ولا يتكلم معهم في العقائد، بل يدعهم الى ان يتأهلوا حق التأهل(٣). ولعل في هذه الاشارة ما يؤكد على مبدأ تربوي جدير بالاهتمام؛ وهو الابتعاد عن ارهاق عقول الطلبة الصغار الذين لم يكتمل نموها، وتنضج بعد بالامور المجردة، والعقلية مما يؤدي الى ارهاقهم.

---

(١) الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٢، ص٢٣.

(٢) محمود رزق سليم: عصر سلاطين المماليك،ج٥، ص١٩١.

(٣) السبكي: معيد النعم ص١٣٠.

اما المرحلة الثانية فهي: مرحلة الشباب، حيث يكب الطلبة على كتب العلم كالفقه والنحو والصرف والاصول والحديث، فيحفظ منها ما وسعه الجهد وتدرك عليه طاقته، ثم يعرض محفوظاته على شيوخ عصره، فاذا اقتنعوا بحفظه وجودته منحوه اجازة عراضه؛ وهي شهادة المرحلة الثانية. ويعد ما يحفظه الطالب في هذه المرحلة معيناً له على دخول المرحلة الثالثة.(١) وتمثل هذه المرحلة مستويين متداخلين هما: المرحلة الثانوية الجامعية في عرفنا الحديث لمراحل التعلم. ويتطلب هذا النوع من التعليم انواعاً مختلفة من المؤسسات التعليمية؛ كالمدارس والمساجد والزوايا والبيمارستانات.

أما عن الهيئة التدريسية التي قامت بالتدريس في المدارس، فكانت تضم المدرس وهو اعلى عضو فيها؛ وعليه ان يحسن القاء الدرس وتفهيمه للحاضرين، وان يتدرج في تدريس التلاميذ ويدربهم، ويأخذهم بالاهون فالاهون الى ان ينتهوا الى درجة التحقيق(٢) ويأتي بعده في المرتبة المعيد؛ الذي يقوم بتفهيم الطلبة ونفعهم وعمل ما يقتضيه لفظ الاعادة.(٣) ويليه المفيد؛ الذي يعيد شرح الدرس والتوسع فيه بحثاً زائداً لتحصل الفائدة(٤) ثم المنتهى من الفقهاء والذي يقوم بعملية البحث والمناظره لكونه في نفسه اعلى من الحاضرين.(٥)

وقد وجد في نابلس عدد لا بأس به من العلماء والمدرسين الذين تولوا التدريس في نابلس نذكر منهم على سبيل المثال: اسماعيل بن احمد بن الحاج ابراهيم النابلسي الذي تصدى للافتاء

---

(١) محمود رزق سليم: عصر سلاطين المماليك، ج٥، ص١٩١.

(٢) السبكي: معيد النعم، ص١٠٥. ابن طولون شمس الدين محمد: نقد الطالب لزغل المناصب، تح محمد دهمان وآخرون دار الفكر المعاصر بيروت، ط١، ١٩٩٢، ص١٥٢-١٥٥.

(٣) نفس المصدر: ص ١٠٨.

(٤) نفس المصدر:ص١٠٨.

(٥) نفس المصدر: ص١٠٨. سليمان خرابشة: نيابة طرابلس في العصر المملوكي، منشورات لجنة تاريخ بلاد الشام، الجامعة الاردنية/ جامعة اليرموك، ١٩٩٣، ص٢٠٠.

والتدريس،[1] وابو بكر زيد بن ابي بكر ولد (١٢٥هـ/١٤٢١م) بجراع من اعمال نابلس وتصدى للتدريس والافتاء والافادة.[2]

أن الاشارة الى محدودية المؤسسات التعليمية في نابلس وارتحال ابنائها الى دمشق والقاهرة للاستزاده في علوم عصرهم وبقاء بعضهم حيث يذهب، وقلة من يعود لنابلس للتدريس فيها لا يعني انقطاعاً في الحياة العلمية وتراجعاً لها فالظروف التي اشرنا اليها ما كانت لتحول بين ابناء نابلس وطلب العلم فقد خرج من نابلس عدد كبير من العلماء الذين برعوا في مختلف الميادين والذين سنعرض نماذج مختلفة منهم.

اولاً: العلوم الدينية

(الفقة) وقد برع في هذا الحقل من العلوم عدد كبير نذكر منهم:

١- موفق الدين ابن قدامه (٥٤١-٦٢٠هـ/١١٤٦-١٢٢٣م)، وكان إماماً عالماً في علم الفرائض والاصول والفقه، وقد صنف في الفقه بالذات العديد من المؤلفات من اهمها: (المغُنى) في عشر مجلدات، (والكافي) في اربعة مجلدات، و(العمدة) و(التوابين) و(مختصر الهداية).[3]

٢- جمال الدين ابو الفرج عبد الرحمن بن عبد المنعم بن نعمة بن سلطان بن سرور بن رافع ابن حسن بن جعفر المقدسي النابلسي الفقيه الحنبلي (٥٩٤-٦٥٦هـ/١١٩٧-١٢٥٨م)، وقد سمع بالقدس وحدث بنابلس.[4]

---

(١) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٦، ص٢٦٦.

(٢) السخاوي: الضوء اللامع، ج١١، ص٣٢-٣٣.

(٣) الكتبي: فوات الوفيات، ج٢، ص١٥٩.

(٤) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٥، ص٢٧٨.

٣- احمد بن احمد بن نعمة بن شرف الدين ابو العباس النابلسي ت(٦٩٤هـ/ ١٢٩٤م)، وقد ولي خطابه جامع بني امية بدمشق، وصنف كتاباً في الاصول، وكان فقيهاً محققاً متقناً للمذهب والاصول، حاد الذهن، سريع الفهم، بديع الكتابة.(١)

٤- احمد بن عبد الدائم بن نعمة بن احمد بن بكير المقدسي النابلسي، ولد بجبل نابلس (٥٧٥-٦٦٨هـ/١١٧٩-١٢٦٩م)، وكان فقيهاً، وكان حسن الخط سريع الكتابة حتى يقال: انه استطاع ان يؤلف كتاباً في الفقه يدعى (الخرقي) على مذهب الامام احمد في ليلة واحدة.(٢)

٥- ضياء الدين ابو الحسن علي بن سليمان بن ربيعة الاذرعي الشافعي، مولده بنابلس (٦٤٠-٧٣١هـ/١٢٤٢-١٣٣٠م)، وكان قاضياً ستين سنة، ونظم كتاب التنبيه في الفقه فبلغ ستة عشر الف بيت، وله أزجال وموشحات.(٣)

٦- سيف الدين ابو بكر بن شهاب ابي العباس احمد بن عبدالرحمن بن عبد المنعم النابلسي، ولد (٦٧٠هـ/١٢٧١م)، كان فقيهاً حنبلياً صالحاً، سمع عن جماعة في دمشق، وكان مطبوعاً عارفاً بالمذهب مناظراً ذكياً.(٤)

٧- شهاب الدين ابو العباس احمد بن الشيخ الامام تقي الدين محمد بن جبارة المقدسي المرداوي (٦٤٩-٧٢٨هـ/١٢٥١-١٣٢٧م)، سمع الكثير وعُني بفن القراءات فبرز فيه، وانتفع الناس به وقد اقام بمصر مدة اشتغل فيها بأصول الفقه.(٥)

٨- محمد بن ابراهيم بن ابي بكر بن محمد بن ابي الكرم النابلسي الاصل ت(٧٩٣هـ/١٣٩٠م)، وقد مهر في التفسير والفقه، وبرع في الادب والفضائل، ونظم

---

(١) المقريزي: المقفى الكبير، ج١، ص٣٦١.

(٢) ابن طولون: القلائد الجوهرية، ج٢، ص٣٨٨-٣٨٩.

(٣) المقريزي: السلوك ج٢، ق٢، ص٣٣٨.

(٤) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب ج٥، ص٤٤٩.

(٥) ابن كثير: البداية والنهاية ج١٤، ص١٤٨.

السيرة النبوية نظماً مليحاً وحدّث بها، وكانت له دروس حافلة وعظيمة،وكان رئيساً عالي المرتبة رفيع المنزلة له اثار حميدة وسمات جميلة.(١)

٩- برهان الدين ابراهيم بن الشيخ عماد الدين اسماعيل النقيب بن ابراهيم المقدسي النابلسي ت(٨٠٣هـ/١٤٠٠م)، وكان فقيهاً جيداً ومتقناً للفرائض. وقد ناب عن قاضي القضاه في نابلس وهو: شمس الدين النابلسي، فباشر القضاء مباشرة حسنة.(٢)

١٠- شمس الدين القباقي محمد بن ابراهيم عبدا لله المرداوي ت(٨٢٦هـ/١٤٢٢م)، وكانت له يد طولى في الفقه؛ حيث اشتغل به ودرّس وافتى.(٣)

ثانياً: علم الحديث

وقد اشتهر العديد من ابناء نابلس في علم الحديث ومنهم:

١- الحافظ عبد الغني بن عبد الواحد بن سرور ابو محمد المقدسي (٥٤١-٦٠٠هـ/١١٤٦-١٢٠٣م)، ولد: بجماعيل وهو من اكابر علماء الحديث واعيان حفّاظهم، وكان إماماً عابداً زاهداً ورعاً.(٤)

٢- ابراهيم بن عبد الواحد بن سرور الشيخ عماد الدين المقدسي الحنبلي، ولد بجماعيل (٥٤٣-٦١٤هـ/١١٤٨-١٢١٧م)، وكانت له معرفة حسنة بالحديث، مع كثرة السماع واليد الباسطة في الفرائض والنحو والخط المليح.(٥)

٣- خالد بن يوسف بن سعد بن الحسن بن مفرج بن بكار ابو البقاء زين الدين النابلسي المقدسي الشافعي مولده بنابلس (٥٨٥-٦٦٩هـ/١١٨٩-١٢٧٠م)، سمع الكثير،

---

(١) ابن حجر العسقلاني: انباء الغمر بانباء العمر، ج٣، ص٩٣-٩٤.

(٢) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٧، ص٢٢.

(٣) ابن طولون: القلائد الجوهرية، ج١، ص١٣٧.

(٤) أبو المحاسن: النجوم الزاهرة، ج٦، ص١٨٥.

(٥) الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٦، ص٤٩.

وحفظ من غريب الحديث جملة وحصّل كتباً حسنة وأصولاً جيدة، وكـان فـاضلاً ديناً ورعاً وكان مولعاً بشراء الكتب وبيعها.(١)

٤- اسماعيل بن ظفر بن احمد بن ابراهيم بن مفرج بن منصور بن ثعلب بـن بكـار النابلسـي الاصـل (٥٧٤-٦٣٩هـ/ ١١٧٨-١٢٤١م)، وقـد اشتهر بكـثرة ترحالـة في طلـب الحديث، وقد سمع الحديث من مناطق مختلفة، واكثر مـا سمعـه في مكـة، وقـد حـدث بالكثير.(٢)

٥- يوسف بن الحسن بن بدر الحسن بن مفرج بن بكار الحافظ المفيد الامـام السـيد شـرف الدين النابلسي الاصل (٦٠٣-٦٧١هـ/١٢٠٦-١٢٧٢م)، وقـد خـرّج لنفسـه كتـاب (الموافقات) وهو في خمسة اجزاء، وقد حدّث بدمشق والاسكندرية والقاهرة، وكان ثقةً حافظاً متقناً جيد المذاكرة جيد النَظم حسن الديار ذا عقل ووقار.(٣)

٦- المسند زين الدين الكمال النابلسـي الاصـل (٦٤٠-٧٣٠هـ/١٢٤٢-١٣٢٩م)، وقـد تفرّد وروى الكثير من الاحاديث بمصر ودمشق.(٤)

٧- شهاب الدين ابو العباس احمد بن المظفر بن ابـي محمـد بـن المظفـر بـدر بـن الحسـن بـن المفرج بن بكـار النابلسـي (٦٧٦-٧٥٨هـ/١٢٧٧-١٣٥٦م)، محـدث فـاضل حسـن القراءة للحديث، وعلى ذهنه فضله وفوائده واسمـاء وانسـاب واشـياء تتعلـق بـالفن بعـد اشتغاله وكثرة سماعه وقراءته.(٥)

٨- محمد بن عبد القادر الشيخ الامام العالم وهو من شيوخ الحنابلـة ت(٧٩٧هـ/١٣٩٤م) بنابلس، وكان له المام كبير بالحديث وكتابته.(٦)

---

(١) الكتبي:محمد بـن شـاكر: عيون التواريخ، تح فيصل السامر وآخرون، وزارة الثقافة والاعلام العراق، ١٩٨٠، ج٢، ص٣٢٦، وسيشار اليه فيما بعد الكتبي: عيون التواريخ..

(٢) ابن طولون: القلائد الجوهرية، ج٢، ص٣٩١.

(٣) الكتبي: فوات الوفيات،ج٤، ص٣٢٠-٣٤١؛ الذهبي: تذكرة الحفّاظ، ج٤، ص ١٤٦٢.

(٤) الصفدي: الوافي بالوفيات، ج١، ص٥٤.

(٥) ابن رافع السلامي: الوفيات، ج٢، ص٩٨.

(٦) ابن قاضي شهبة: تاريخ ابن قاضي شهبة، ج٣،ص٥٦٨، ابن حجر العسقلاني: انباء الغمر بابناء العمر، ج٣، ص٢٧٢-٢٧٣.

٩- علاء الدين ابو الحسن علي بن محمد بن العفيف النابلسي (٧٦٢-٨١٨هـ/١٣٦٠-١٤١٥م)، وقد ولى القضاء في نابلس، وكان من ائمة الحديث وهو من مشايخ تقي الدين القلقشندي، وكانت وفاته بنابلس.(١)

ثالثاً: التصوف

لقد شهدت ولاية نابلس نشاطاً ملحوظاً في مجال التصوف، وكان هنالك عدداً من اهل نابلس اشتهروا في هذا المجال نذكر منهم:-

١- احمد بن عبد الرحمن الحنبلي الشيخ المحدّث الصوفي، احد الزهاد الاولياء من مواليد نابلس سنة (٦٢٨هـ/١٢٣٠م)، وقد اخذ عنه كثيرون منهم: ابن رشيد سنة (٦٨٤هـ/١٢٨٥م)، واخذ هو عن ابي محمد: عبد الوهاب بن طاهر بن رواج: احد اصحاب السلفي.(٢)

٢- ابو الذكاء عبد المنعم بن يحيى بن ابراهيم القرشي الصوفي النابلسي ت٦٨٧هـ/١٢٨٨م، وقد اشتغل بالافتاء والتفسير فترة طويلة، وقد سمع من كثيرين وتوفي وله اربع وثمانون سنة.(٣)

٣- جمال الدين الشاعر يوسف بن سليمان بن الحسين بن ابراهيم (٦٩٣-٧٥٠هـ/١٢٩٢-١٣٤٩م)، وكان اديباً وشاعراً وخطيباً وصوفياً، وشعره كان مجيد في المقاطيع يجيد نظمها ومعناها، وله بديهه مطاوعة وارتجال مسرع، لذيذ المفاكهة جميل الرد حسن الملقى.(٤)

---

(١) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٧، ص١٣٣.

(٢) ابن القاضي: درة الحجال، ج١، ص٣٤.

(٣) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٥، ص٤٠١.

(٤) الكتبي: فوات الوفيات، ج٤، ص٣٤٣.

علوم اللغة العربية والادب والشعر

وفي هذا المجال وجد العديد ممن ابدعوا فيه نذكر منهم:

١- ابو البقاء النابلسي خالد بن يوسف بن سعد بن الحسن بن مفرج بن بكار (٥٨٥-٦٣٣هـ/١١٨٩-١٢٣٥م)، وقد مر معنا ترجمته في علم الحديث وقد نظر في اللغة العربية وكان يعرف قطعه كبيرة من الغريب والاسماء والمختلف والمؤتلف. وله حكايات متداولة بين الفضلاء، وكان قصيراً شديد السمرة. ويلبس قصيراً ومن شعره:

ابا حسن إنّي اليك وان تـأت ... رِكابي الى بغداد ما عشت تائق

لو عنت الاقدار قبلى لعاشق ... لما عاقني عنك العشية عائـــق(١)

٢- شرف الدين النابلسي المقدسي الشافعي (٦٢٢-٦٩٤هـ/١٢٢٥-١٢٩٤م)، وكان محققاً للأصول والعربية والنظر، حاد الذهن سريع الفهم، بديع الكتابة اماماً في تحرير الخط المنسوب، وقد ولي خطابه المسجد الاموي لفترة وكان متواضعاً حسن الاخلاق، وقد اقرئ الادب لفترة طويلة.(٢)

٣- ابو العباس احمد بن عبد الرحمن بن عبد المنعم بن نعمة النابلسي (٦٢٨-٦٩٧هـ/١٢٣٠-١٢٩٧م)، قال الذهبي فيه: بأنه يدرك كل ماله شأن في علم التعبير. وله مصنف كبير في هذا العلم اسماه: (البدر المنير في التعبير)(٣)

٤- شمس الدين محمد بن عبد القوى بن بدران بن سعد الله المقدسي المرداوي الصالحي الحنبلي (٦٣٢-٦٩٩هـ/١٢٣٤-١٢٩٩م)، برع في العربية واللغة، اشتغل ودرس وافتى وصنف، وكان حسن الديانة دمث الاخلاق كثير الإفادة ومُطرحاً للتكلف. وممن قرأ عليه الشيخ تقى الدين ابن تيمية.(٤)

---

(١) الكتبي: فوات الوفيات، ج١، ص٤٠٣.

(٢) الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٦، ص٢٣١-٢٣٢.

(٣) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٥، ص٤٣٧ ؛ ابن القاضي: درة الحجال، ج١، ص٣٢-٣٣.

(٤) ابن القاضي: درة الحجال، ج١ ص٣٢-٣٣؛ ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٥،ص٤٥٢.

٥- ابن الشهيد فتح الدين ابو بكر محمد بن ابراهيم بن محمد النابلسي الاصل ولد ٧٢٨هـ/١٣٢٧م، وكان له اشتغال في العربية وتفنن بها، وفاق اقرانه في النظم والنثر.(١)

٦- محمد بن احمد بن محمود الصالحي شمس الدين النابلسي (ت٨٠٥هـ/١٤٠٢م)، وكان له اشتغال في العربية(٢) وكانت له حلقة خاصة لإقراء العربية.(٣)

٧- جمال الدين عبدا لله بن ابي عبدا لله الدمشقي الفرخاوي (نسبة الى فرخا بفاء وخاء وميم مفتوحتين بينهما راء ساكنة، قرية من عمل نابلس) ت٨١٨هـ/١٤١٥م، وكان له اهتمام بالفقة والعربية، وقد درّس وافاد وكان ماهراً في النحو.(٤)

هؤلاء كلهم كانوا ممن ساهموا في الانتاج الحضاري لعلوم الدين واللغة، وكلهم تعود اصولهم الى مدينة نابلس وفي الواقع نستطيع ان نلمس بأن اهتمام علماء العصر المملوكي كان منصباً على علوم الدين بفروعها من فقه وحديث وقراءات وتفسير وتجويد، وعلوم اللغة العربية من نحو وصرف وبلاغة وكتابة وشعر وأدب.

اما العلوم العقلية والتطبيقية من رياضيات وفلك وطب، فعلى ما يبدو ان الاهتمام والعناية بها كان ضئيلاً. ولعل مرد ذلك كان الى طبيعة العصر المملوكي الذي لم يشجع مثل هذه الدراسات لاسباب سياسية كنا قد اشرنا اليها ولغلبه نزعه الجهاد، مما حدا بالاهتمام بالعلوم الدينية على حساب العلوم التطبيقية، فقد ظهر في نابلس العديد من العلماء منهم: فخر الدين ابن مزهر، احمد بن مظفر بن مزهر القاضي فخر الدين النابلسي، وقد كان كاتباً خبيراً بصناعة الحساب وله عدة مباشرات ووقائع بالديوان.(٥)

---

(١) النعيمي: الدارس في تاريخ المدارس، ص٢٦٦-٢٦٧.

(٢) ابن حجر العسقلاني: انباء الغمر بابناء العمر، ج٤، ص٨٨.

(٣) ابن طولون: القلائد الجوهرية، ج٢، ص٤٩٦-٤٩٨.

(٤) ابن العماد الحنبلي: شذرات الذهب، ج٧، ص١٣٣.

(٥) الصفدي: الوافي بالوفيات، ج٨، ص١٨٢.

أما في العلوم الطبية؛ فقد اشتهر العماد النابلسي الذي اخذ عنه جملة من العلماء: اشهرهم شمس الدين الجزري[1]، وفي أواخر الدولة المملوكية، شهدت الفترة ظهور شخصية طبية متميزة كان لها الاثر الكبير في الطب وعلوم اخرى، الا وهو يوسف بن القاضي حسن بن احمد بن حسن بن عبدالهادي الشهير بابن المبرّد (٩٠٩هـ/١٥٠٣م)؛ وهو من بني قدامه الذين هاجروا الى الشام، واستقروا بدمشق في حي الصالحية هرباً من الاضطهاد الفرنجي.[2] وقد كانت له مؤلفات متميزه في الطب منها: (الاقناع في ادوية القلاع)،[3] وكتاب (المشتبه في الطب)،[4] و(الادوية)،[5] و(دخول الحمام وقوانينه)؛[6] و(طب الفقراء)؛[7] هذا فضلاً عن مجموعة كبيرة من الرسائل الطبية التي تناولت الامراض التي تصيب جسم الانسان من الرأس الى القدم ومنها رسالة (الاتقان في ادوية اللثة والاسنان)؛ و(الاتقان لادوية اليرقان)؛ و(الفنون في ادوية العيون)؛ و(الحول على معرفة ادوية البول)؛ و(ايضاح القضية بمعرفة الادوية القلبية)، و(داوء المكترب بعضة الكلب) و(كمال الاصغاء الى معرفة الامعاء)، و(هدية الاشراف لمعرفة ما يقطع الرعاف) و(هدية الاخوان لمعرفة ادوية الاذان)، و(الكمال في ادوية الصدر والسعال)، و(العهدة لادوية المعدة)، و(تمام النوال في ادوية الطحال)، (والادوية المفردة لعلل المقعدة)، و(اللثق لادوية الحلق)، و(ارشاد المعتمد في ادوية الكبد)، و(الادوية الوافدة الى الحمى الباردة)، و(بلغة الامال بادوية قطع الاسهال)، و(تعريف المجروح بما يدمل القروح).[8]

---

(١) نفس المصدر ، ج٢، ص٢٣.

(٢) محمد عيسى صالحية: الطب والاطباء في فلسطين، الموسوعة الفلسطينية، ط١، بيروت، ق٢، ١٩٩٠؛ ص ٣٩٧-٣٩٨. ويذكر د. صالحية بأن ابن المبّرد اشتهر بكونه محدِّث ومسند وقد عمل من ترجم له من قبل ان يبرزه في هذين المجالين ولكن ومن خلال اطلاع د. صالحية على فهرست كتبه استطاع ان يستخرج العديد من مصنفاته الطبية والتي ما زالت مخطوطة ونحن بدورنا اعتمدنا على ما قدمه. د. صالحية من ارقام مخطوطات كتبه.

(٣) منه نسخة في سوريا، دمشق، المكتبة الظاهرية، رقم ٥٥، طب م (قديم).

(٤) منه نسخة في سوريا، دمشق، المكتبة الظاهرية، رقم ٣٢١٦ طب.

(٥) منه نسخة في سوريا، دمشق، المكتبة الظاهرية، رقم ٣٧٠٢.

(٦) منه نسخة في سوريا، دمشق، المكتبة الظاهرية، رقم ٤٥٣٥.

(٧) منه نسخة في سوريا، دمشق، المكتبة الظاهرية، رقم ٣١٥٥، طب.

(٨) صالحية: الطب والاطباء في فلسطين، الموسوعة الفلسطينية، ص٣٩٨.

الحياة العمرانية

أما فيما يتعلق بالمنشآت العمرانية فقد سبق لنا القول ان من مميزات الحقبة المملوكية انها وفرت لنابلس فترة من الامان والاستقرار كانت في أمَس الحاجة لها بحيث ابعدتها عن تهديدات الهجمات الفرنجية والتترية مما افسح المجال امام السكان في نابلس للالتفات الى المشاركة في اعادة تعمير بلدهم بعدما اصابها من خراب سواء على يد الفرنج ام التتار.

وقد شجعت الاوضاع الاقتصادية المزدهرة لنابلس وخاصة في الفترة الاولى من حياة الدولة المملوكية على النهوض بالمشاريع العمرانية وتطويرها فأقيم العديد من المنشأت المتنوعة ما بين المساجد والمدارس والمنازل والاسواق والحمامات وغير ذلك ومن تلك المنشآت:-

اولاً: الجوامع

لقيت المساجد منذ مطلع التاريخ الاسلامي عناية خاصة نظراً لما يتمتع به المسجد من دور كبير في حياة الفرد والجماعة على حد سواء، وقد اوليت هذه المنشآت الكثير من العناية سواء في هندستها وبنائها او في زخرفتها وفرشها، وحرصت الدول الاسلامية على ايلائها المزيد من العناية، ولا شك ان الدولة المملوكية من بين الدول الاسلامية التي حرصت على الاهتمام بهذا النوع من المنشآت سيما وانها حرصت على ابراز الواجهة الدينية للدولة المملوكية نظراً لطبيعة العصر الذي وجدت فيه ولنظرة المعاصرين لها بأنها دولة ارقاء ومن هنا بالغت في الاهتمام بكل ما يمت بصلة الى الحياة الدينية.

وقد وجد في نابلس مجموعة من المساجد التي تعود للفترة المملوكية ومنها:

١- **جامع الخضرا:** ويقع في حي الياسمينة، ويقال انه المكان الذي حزن فيه يعقوب على ابنه يوسف، وقد عمرّه السلطان قلاوون الصالحي (٦٧٨-٦٨٩هـ/١٢٧٩-١٢٩٠م)، حيث جاء على لوحته الحجرية المثبته على باب:

عُمِّر هذا المسجد في أيام السلطان الملك.

منصور سيف الدين قلاوون الصالح أعزه الله.

ماولده السلطان الملك الصالح علاء الدين عز نصره[١].

وقد وصفه الرحالة اوليا جلبي؛ بانه عبارة عن بناء مربع طول ضلعه من كل جانب ٨٧ خطوة[٢] اما (Enlart) فقد ذكر بأن المسجد بني على النمط القوطي في فترة اعادة الاستيطان الفرنجي القصيرة اي في حدود سنة (٦٤٠هـ/١٢٤٢م).[٣] ولا ندري ان كان هناك بعض المهندسين ممن عرفوا هذا النمط في بيزنطة او الشام او الاندلس، ومن الجدير بالذكر بأن خبرتنا ترجح ما جاء على لوحته، اذ لم يرد بان المسجد قد تعرض للترميم فيما انتهى الينا.

٢- **الجامع الكبير:** ويقع في شرقي المدينة ومدخله الرئيسي من جهة الشرق. وكان هذا الجامع في السابق كنيسة، وقد حولها السلطان صلاح الدين الى جامع. وفي الجانب الشرقي منه، وعلى كلا جانبي المدخل، يوجد اعمدة رخامية رقيقة عددها ثمانية بشكل متناسق تدعم الشكل القوسي لها، وكان طول هذا الجامع تقريباً ثلاثمائه خطوة من احد اطرافه، وكان عرضه مائه خطوة. وكان هناك ما مجموعة خمس وخمسون عمود وردي[٤].

---

(١) العسلي: نقوش من نابلس والخليل، حولية دائرة الآثار العامة، عمان ١٩٩٢، مجلد ٣٦، ص٣٧٠.

(٢) Evliya Tshelbis: travel in Palestine P.139.

(٣) Enlart les Monuments. P.285.

(٤) Evliya Tshelbis. Op cit., p 139.

وقد كان يحتوي هذا المسجد على مدرسة لسكنى الغرباء من طلبه العلم. وحوله سوق مسقوف. حيث نسبت هذه الابنية الاصلية الى مصطفى بك الغفاري؛ وذلك من خلال نقش موجود فيه من ستة اسطر مكتوب بالخط النسخي الجميل.

هذا قبر المرحوم

مصطفى بك الغفاري

عليه رحمة الباري

باشراه رضوان بك أمير

الركب المصري في ربيع

الاول لسنة ١٠٥١هـ/١٥٨٦م من محمد حبيب.

وعلى لوحة من الرخام مثبته عند اول القوس، فوق العمود القائم في الساحة الشرقية والتي تسبق الجامع الكبير، نجد النقش التالي ايضاً:

اذا ما جئت نابلس (نابلسا) فابادر (فبادر)

وعرّج نحو جامعها الكبير

تجده عامراً يدعو بخير

وبتأييد (وتأييد) لمولانا الوزير

أتى التاريخ لطفاً يا مجيد

بحسن احياه واجزيه بخير

وهذه الاشارة تدلل على تعمير الجامع الكبير سنة ١١٣٩هـ/١٧٢٦م؛ من قبل سليمان امير الحج الشامي.[١]

٣- جامع النصر

ويتكون من مخطط يحتوي على حنية ويتقدمه رواق مستطيل وخمسة اساكيب تشكل في مجملها صحناً ذا اروقه جانبيه كله مغطى بعقود منقطعه اما العقود والنوافذ الصغيره للجهات الجانبية فهي مثلثة في حين جاءت النوافذ كبرى للصحن في مركز العقد[٢] .

هذه الجوامع بالطبع بالأضافة الى جامع ديكر، تنكز الذي انشأه الوالي المملوكي سيف الدين ابو سعيد تنكز وجامع التينة وجامع العمري، بالاضافة الى الجوامع التي بنيت في القرى الميحيطة في نابلس مثل دامار، سبسطيه وقاقون وعرابه، وبعاره، وقرقيب.[٣]

ثانياً: المنازل

حظيت المنازل في نابلس مثلما هو في غيرها من المدن الاسلامية بالعناية والاهتمام الكبير خاصة وان هذا المنازل لم تشيد لتكون مجرد مأوى يأوى اليها اصحابها بقدر ما اعدت لتوفر لسكانها كل اسباب الراحة لذلك بولغ في توفير هذه الاسباب بسكانها.

وقد تفاوتت هذه المنازل من حيث البناء والابهه تفاوتاً يتناسب والمكانة الاجتماعية لاصحابها ففي الوقت الذي نجد فيه بيوت الاغنياء الفارهه المكونة من عدة طبقات والمغطاة بالرخام والتي تحتوي في داخلها على غرف كثيرة وقاعات وحدائق تجلب الراحة للنفس والتي

---

(١) العسلي: نقوش من نابلس والخليل، ص٣٦٨.

(٢) Entant: Les Monuments. P. 284.

(٣) البخيت: نابلس ونواحيها، ص٩٣-٩٥.

لدينا اوصاف عديدة لها منها ما نصه فدخلنا في جنينة في ذلك المنزل رحيبة الاكناف لطيفة الجوانب والاطراف فيها حوض ما ء يجري بالعذب الزلال وايوان عالٍ جديد البنيان وريف الظلال(١).

وايضاً وذهبنا الى روض أريض يُصعد اليه بدرج طويل غير عريض وهو من العجائب التي عن الغرائب مفصحة ان يكون بستان ذو اشجار ومياه جارية وثمار يانعة وذلك كله فوق الاسطحة وهو من خصوصيات البلاد النابلسية(٢). لادركنا من خلال ذلك ان منازل الاغنياء امتازت بالاتساع فهي تحتوي على غرف كثيرة لاستخدامها استخدامات متعددة اضافة الى الايوان والذي يخصص لاستقبال الزوار وان هذه المنازل قد تكون مشكلة من عدة طوابق لذلك تستخدم الادراج ذات المواصفات الخاصة التي تمتاز بانها غير عريضة يضاف الى ذلك حدائق غناء كفيلة بان توفر للنفس اسباب الراحة والمتعة فهي تحتوي على المياة والاشجار والطيور غير ذلك؟

وقد امتازت بيوت الاغنياء في نابلس بالضخامة الى الدرجة التي دفعت بالرحالة اوليا حلبي الى تشبيهها بالحصون فذكر ان البيوت تشبة الحصون وانها كانت مبنية بناء جيد ومكسوه بالجص(٣).

ولقد كان للطبيعة اثر في هذه المباني من حيث المواد المستعملة في البناء، فأنت لا تجد في نابلس بيوت مبنية من الخشب(٤) ، اذ كلها تستخدم الحجارة الكلسية الصلبة في البناء، بحيث طبعت المدينة بطابع مميز.

---

(١) النابلسي الحضرة الانسية ص٧٨

(٢) نفس المصدر والصفحة.

(٣) Evliya Tshelebis: Travel in Palestine, P 138.

(٤) Ibid P. 138.

الحمامات العامة:

وهي من المنشأت العمرانية التي اشتهرت بها المدن الاسلامية في العصور الوسطى وقد قصدها الناس من مختلف الطبقات -رجال ونساء- للاستحمام لكون الناس لم تألف في تلك الاوقات الاستحمام في منازلهم كما هو الحال في ايامنا.

وبناء الحمامات العامة ينسجم مع العقيدة الاسلامية التي جعلت النظافة ركناً من اركان الايمان لذلك انتشرت هذه الحمامات في المدن الاسلامية.

فاذا انتقلنا الى نابلس وجدنا هذا النوع من المنشآت العمرانية والتي بلغت درجة من الجودة والتميز جعلت المقدسي يصفها بأنه لهم دواميس عجيبة[1] ولعل شهرة نابلس في انتاج انواع الصابون الممتاز التي ذاعت شحرتها في المنطقة قد ضاعف من جودة هذه الحمامات وما تقدمة من خدمات للناس لذلك لا نستغرب حين يصفها شيخ الربوة بأنها حمامات طيبة[2].

وقد وجد في نابلس اكثر من ثمانية حمامات على انها لم تكن جميعها مملوكية الانشاء اما اشهر حمامات نابلس التي بنيت في العصر المملوكي فهي:

١- حمام الريش.

ويقع هذا الحمام في ساحة البلدة القديمة، وهي المعروفة حالياً بساحة المنارة على أول الطريق المؤدية الى المسجد الكبير من الناحية الجنوبية. ويعتبر هذا الحمام بالاستناد الى العناصر المعمارية المتوفرة فيه ما بين القبو المروحي والعقود المدببة، والمداخل المعقودة وغير ذلك من الطراز العام في بناءه- اسلامي البناء والتأسيس، حيث يرجع بناؤه الى القرن الثامن الهجري او

(١) المقدسي: أحسن التقاسيم، ص ١٧٤.

(٢) شيخ الربوة: نخبة الدهر ص٢٠٠-٢٠١.

بداية التاسع اي الى الفترة المملوكية التي كثر استخدام العناصر المعمارية السالفة الذكر خاصةً القبو المروحي. وقد هجر الحمام حديثاً وتعود ملكيته لآل الآغا.(١)

٢- حمام الدرجة:

ويقع هذا الحمام خلف المسجد الكبير من جهة الجنوب، ويتوصل اليه بواسطة زقاق طويلة، وهو حمام كبير الحجم. خاصة غرفة المشلح الشتوي وبيت الحرارة. ويبدو ان الحمام قد اقيم على انقاض بناء قديم لعله كان يعود الى ما قبل الفترة الاسلامية؛ حيث يوجد في بعض الاجزاء من اساساته ذلك النوع من الحجارة الكبيرة الضخمة، التي كانت تستعمل في الفترة التي سبقت الاسلام. اما بناء الحمام الحالي فهو اسلامي الطراز حيث يشاهد فيه قبو متقاطع يغطي غرفة الاستقبال الكبيرة الحجم، كما يوجد فيه بعض المداخل الصغيرة المعقودة في قسم الاستحمام، وبناء على ذلك فأن بناء الحمام يوحي بانه يعود الى الفترة المملوكية. وقد اجرى عليه تصليحات في الفترة التركية.(٢)

هذا ويوجد على جانبي الزقاق المؤدي الى الحمام نقشان حجريان كبيران، امكن قراءة بعض الاسطر فيهما، ذلك لان الكتابة الموجودة عليهما اصابها التلف اما الكتابة فهي:

الدنيا والدين .... والسلطان محمد .... سنة سبعماية

أو لعل النقشين يعودان الى السلطان محمد بن قلاوون، الذي حكم ما بين (٧٠٩- ٧٤١هـ/١٣٠٩-١٣٤٠م).(٣)

---

(١) وائل ابو صالح: الحمامات العامة في مدينة نابلس، مجلة النجاح للابحاث، حزيران، العدد رقم (١)، ١٩٨٣، ص٨٩، وسيشار اليه فيما بعد ابو صالح، الحمامات.

(٢) ابو صالح:الحمامات، ص٩٠.

(٣) المرجع السابق، ص٩٠.

ومن أشهرالحمامات التي وجدت في نابلس حمام الغايب في محلة ريس، وحمام البيدره، وحمام البابيه في محله عقبه، وحمام الدرج وحمام الشجاع في محله ياسمين، وحمام آخر في نفس المحله ليعرف بحمام سامري، ويشير هذا الحمام الى وجود طائفة السامرية في نابلس.(١)

وقد وجد في نابلس الأسواق التي سبق واشرنا اليها عند الحديث عن الناحية الديمغرافية، كما وجد عدد من معاصر الزيت واحده في محله عقبه وهي مكونة من عدة حجرات وقد تبع هذه المعاصر وجود عدد من المصابن من اهمها مصبنة في محله ريس ومصبنتان في سوق المربعة بالاضافة الى معصرتين لزيت السيرج.(٢)

أما فيما يتعلق باجزاء الحمام والقائمون عليه فالحمام بناء كبير يشيد في العادة من الحجارة وواجهاته كبيرة وبدون فتحات وله باب متسع بعض الشيء يشابه ابواب المساجد وتغطي جميع حمامات نابلس بقباب كروية بها فتحات صغيرة مغطاه بالزجاج بهدف ادخال الضوء الى داخل الحمام وتمتاز جدران الحمامات بعرض الكليل حتى لا تؤثر فيها الزلازل والامطار وتطلى من الاسفل بالقار اما النصف العلوي فيطلى باللون الذي يختاره صاحب الحمام اما ارضية الحمام فتغطى بالرخام الابيض والاسود.

اما من حيث التصميم الداخلي للحمام فقد روعي فيه الانتقال تدريجياً من الجو البارد الى الحار وبالعكس حتي لا يصاب الشخص بالاذى واول ما يدخل المستحم يدخل الىغرفة المشالح وهي غرفة كبيرة يتوسطها نافورة ماء بارده ويحيط بها مسطبه ترتفع عن الارض حيث يتم فيها خلع الملابس واستبدالها بالمآزر ثم تأتي الدهاليز التي تمتاز بالضيق والارتفاع يتخللها فتحات مغطاه بالزجاج وتوزع هذه الدهاليز يصل بين البوابة والمشلح الصيفي ودهليز يصل بين المشلح الصيفي والشتوي ودهليز يصل ما بين المشلح الشتوي والغرفة والمدفأة وهناك بيت

(١) البخيت: نابلس ونواحيها، ص٩١-٩٢.

(٢) البخيت: نابلس ونواحيها، ص٩١.

الحرارة ولما كانت مدخنة بيت النار تمر من اسفلة لذا يمتاز بارتفاع درجة حرارة ارضه وعلى بلاطه يجلس من المستحمين من اراد التدليك وحول بيت الحرارة خلوات ويتفاوت عددها من حمام لاخر وتحتوي على حجر كبير منقور يجمع فيه الماء الساخن.

اما بيت النار فهو أحد أجزاء الحمام وهو عبارة عن فرن عليه قدر كبير من النحاس مملوء بالماء ويندفع الماء الساخن والهواء من اسفل غرفة بيت الحرارة الى مكان الاستحمام خلال مواسير من رصاص وكان يوجد في الحمامات المغاطس وقد وجد في كل حمام من حمامات نابلس مغطس ومكانه في خلوه من خلوات الحمام يستعمله الناس للغطس فيه وخاصة المرضى منهم[1].

---

(1) وائل ابو صالح: الحمامات العامة في مدينة نابلس ص٩١-٩٤.